## السياسة والثقافة

# المثقف ليس بوقاً للهتاف والمديح

**هاني المصري**

السياسة تهتم بنظام الحكم وكل ما يؤثر فيه ويتأثر به، وبهذا المعنى فهي تؤثر على كل شيء في حياتنا، فكل شيء هو في التحليل الأخير سياسة. فالسياسة ليست مجرد عمل يهم السياسيين، بل هي أمر يهم كل أفراد المجتمع، وتؤثر على سعر رغيف الخبز وفاتورة الكهرباء والماء والصحة والتعليم والعمل.

والسياسة تهتم وتتعامل مع المعطيات والتكتيك والراهن وموازين القوى والمصالح. لذا فهي متغيرة دائماً. لذا يقال لا سياسات دائمة وإنما مصالح دائمة. كما يقال أن السياسة فن الممكن. الأصح القول هي فن افضل الممكنات. فاختزال السياسة بالممكن فقط يعني ان تقبل بأي شيء لا بأقصى ما يمكن تحقيقه في شروط محددة. وهذا يؤدي إلى الخضوع للواقع، بدلاً من التعامل معه بأفق السعي لتغييره.

أما الثقافة فهي على النقيض من السياسة تماماً فهي تهتم بكل شيء، الماضي والحاضر والمستقبل وإبداعات الإنسان في كل المجالات. والثقافة تتعامل مع الآفاق الرحبة والثوابت والقيم والاستراتيجيات، ولكن على أساس الفهم بأن المفاهيم تتبلور على ضوء الواقع. وكما قال بيكاسو، الفنان العالمي الشهير: يحقق الفنان في عمله ما وجده وليس ما يبحث عنه.

وإذا أردنا تجسيد الفارق ما بين الثقافة والسياسة بشكل ملموس، نقول أن السياسة على سبيل المثال لا الحصر لا تستطيع أن تتفادى الاعتراف بإسرائيل حتى تكون واقعية وقادرة على الفعل والتأثير، لأن إسرائيل أصبحت واقعاً لا يمكن تجاهله وحصلت على الشرعية الدولية، والعربية. أما الثقافة فليست مطالبة بهذا الاعتراف كما أنها تفرق ما بين الاعتراف بالأمر الواقع الضروري واللا غنى عنه أحياناً وبين التسليم به أو تطويع الثقافة له. فهناك فرق بين الاعتراف بإسرائيل وبين الاعتراف بحق إسرائيل بالوجود، وإعادة قراءة التاريخ والأحداث على أساس الواقع الناشئ بحكم القوة والقهر وتشريد الفلسطينيين، وخضوعاً للادعاءات والمقولات التي تسردها الحركة الصهيونية لتبرير إقامة إسرائيل على حساب الفلسطينيين.

ولذلك نجد أن السياسة تحاول دائماً تطويع الثقافة بحيث تحول المثقف إلى تابع وذيل مهمته تزيين وتبرير ما يفعله السياسي أياً كان. ويكتسب المثقف والمثقف العضوي كما يقول غرامشي أهميته من محاولته الدائمة قدر الامكان للانفصال عن السياسي من اجل أن يؤثر به من خلال فتح الآفاق الرحبة أمامه وربطه بالاستراتيجية وبالتغيير وبالعمل من اجل ما نطمح إليه وعدم الخضوع للواقع كما هو.

لقد كانت السلطة على مدار التاريخ، خاصة السلطات الديكتاتورية، تحاول ضبط الحريات الفردية وكبحها والعمل على توجيه التيارات الفكرية والسياسية والثقافية في المجتمع وجهة واحدة هي وجهة الجهاز السلطوي نفسه، وذلك لخلق مصلحة واحدة قوية تمكن السلطة من تحقيق أهدافها بسهولة وسرعة. لذلك قال غوبلز الداعية الفاشي الشهير: كلما اسمع كلمة ثقافة أضع يدي على مسدسي. لذا نرى السلطة تنزع باستمرار إلى احتواء المثقف ودمجه في خدمة مصالحها وسياساتها وإذا لم تنجح تسعى إلى التخلص من المثقفين المعارضين والمناوئين لها بحبسهم، وبعزلهم وتضييق تأثيرهم إلى أدنى حد ممكن. فالمثقف رائد أهله وعليه دائماً طرح أسئلة شائكة تقلق راحة القارئ، وتدفعه إلى البحث الدائم لاكتشاف حقيقة العالم، وليس أن يتحول إلى بوق للهتاف والمديح للحاكم أو السلطة الحاكمة، والتأكيد على حقائق ثابتة جاهزة، والاستفاضة في شرحها وتوضيحها، بدلاً من تبيان مدى تعقد الواقع وبنية العالم ومحاولة المساهمة في تغيير كل هذه البنية المعقدة.

وفي الواقع الفلسطيني نجد أن العلاقة ما بين الثقافة والسياسة، علاقة لها خصوصيتها المستمدة من الظروف الاستثنائية التي تعيشها القضية الفلسطينية.

فالمثقف الفلسطيني موضوع تحت شروط قاسية لا ترحم. فالمثقف الذي يتجه توجهاً أو يفكر تفكيراً يبتعد به أو ينفصل عن السياسة يعتبر متنكراً للواقع، ومحاولة للابتعاد عن الحياة اليومية وهموم الناس. وهذا معناه خيانة المثقف لذاته وقضية شعبه. وهذا يعني انه لا يوجد للمثقف الفلسطيني طريق للهروب، لأن أحداث التاريخ المعاصر تجرفه في تيارها قبل أن يولد.

إن خصوصية التجربة الفلسطينية وعنف الصراع، يدفعان المثقف إلى معمان المواجهة. وهذا يخلق توتراً بين الواجب والحرية. والواجب يدفع في اتجاه آخر. فالدفاع عن القضية وصل في أحيان كثيرة إلى مطالبة المثقف الفلسطيني إلى اقتصار عمله الثقافي والإبداعي في خدمة قضيته بصورة مباشرة والابتعاد عن المواضيع الأخرى بما في ذلك الفن والغزل لدرجة تشعر الفلسطيني وكأنه حيوان سياسي. ولكن علينا أن ندرك أن ليس بالسياسة وحدها يحيا الإنسان الفلسطيني. فهو مثلما يعاني ويتألم من الاحتلال ويناضل ضد الاحتلال ويسعى للحرية والاستقلال وحل القضية الفلسطينية من كل جوانبها حلاً عادلاً، فهو يعيش ويحيا، يبدع ويعمل ويحب ويحزن ويتعب ويحتاج إلى تلبية كل احتياجات الإنسان في مختلف جوانب الحياة. فان تكون فلسطينياً لا يعني أن تلغي ذاتك كانسان آلي أو حتى تتحرر فلسطين. بل حتى تتحرر فلسطين يجب أن يذوق الفلسطيني طعم الحرية في التفكير والحياة والعمل وان يعرف طعم الحياة الحقيقية، لأنه يصبح حينها قادراً اكثر على العطاء والنضال من اجل التحرير.

# تنمية ع البساطة

## ثقافة "بنت عيشة"

**وداد البرغوثي**

تحضرني أبيات شعرية بعنوان "الغزو من الداخل" للشاعر اليمني الراحل عبد الله البردوني

غزاة لا أشاهدهم وسيف الغزو في صدري
فقد يأتون تبغا في سجائر لونها يغري
وفي أقراص منع الحمل في قارورة العطر
وفي سروال أستاذ وتحت عمامة المقري
فقد يأتون سرا في مناديل الهوى العذري
وفي صدقات وحشي يؤنسن وجهه الصخري
وينسلون من جلدي ويستخفون في شعري
وتحت جلودهم جلدي وتحت نعالهم ظهري

هذا جزء صغير(عينة) من قصيدة لشاعر كفيف حرمه الله نعمة البصر ومنحه نعمة التبصر العميق في الأشياء. رأى جوهر المشكلة في التنمية الثقافية، أو في الثقافة التنموية. غزو وتبعية اقتصادية هذا هو الحال، وليس وضع الثقافة أسعد حالا من السياسة والاقتصاد. نحتاج إلى ثقافة تنموية ونحتاج إلى تنمية ثقافية، أيهما نحتاجه أولا، وأيهما يسبق الآخر، أيهما السبب وأيهما النتيجة؟

الإجابة على هذا السؤال تماما كالإجابة على سؤال أيهما أولا " البيضة أم الدجاجة"، جدل سيدور دون أن نصل إلى نتيجة. لأننا بدون ثقافة لن نصل إلى التنمية وبدون تنمية لن نصل إلى الثقافة. إنصافا أقول: إذا افترضنا المجتمع أو الوطن جسدا فإن أفضل حسم للجدل أن نقول أن أحدهما الذراع الأيمن والثاني الذراع الأيسر، أو العين اليمنى والعين اليسرى... إلى آخره من الثنائيات العضوية في الجسد الآدمي وحتى غير الآدمي. فلا يمكننا أن نتحدث عن ثقافة تنموية ونحن ما زلنا نبحث عن " الخبز المخبوز والمية في الكوز".

نتباهى نحن بنسبة التعليم الجامعي المرتفعة جدا في بلادنا. ونعتقد أننا حققنا الشيء الكثير وهذه النظرة ربما تسبب إحدى إشكاليات الثقافة التنموية، لدينا حملة شهادات وليس لدينا مثقفون تنمويون. الشهادة في كثير من الأحيان تصبح عبئا على حملها، رغم أنه سعى إليها ودفع في سبيلها الكثير وربما قضى من أجلها أحلى سنوات عمره. فبعد أن حملها اكتشف أنه غير قادر على القبول بعمل في غير مجاله، في وقت لم يجد عملا يتناسب مع شهادته. تحوله الشهادة إلى محبط يائس، يفكر في الهجرة و "يلعن أبو" اليوم الذي قرر فيه الدراسة وتوهم أن الشهادة الجامعية ستحقق أحلامه.

الذنب ليس ذنبه، الذنب ذنب العشوائية وعدم التخطيط والخطط والمخططين، تخصصات كثيرة تفتح في الجامعات ولا يوجد فرص عمل توازيها في السوق. ببساطة التنمية الثقافية تعني القدرة على التعامل مع المتغيرات، الثقافة بحد ذاتها ليست هدفا بل هي وسيلة من الوسائل التي تكرس لخدمة الإنسان والإنسانية. أما أن تجري الثقافة في واد والحياة في واد آخر في هذه الحالة " لا فينا ولا في ثقافتنا" الثقافة نمط، نسق متكامل، يتكامل بالحياة، بالممارسة، إذا كانت هذه الثقافة قابلة للحياة يعني ثقافة مثل مابيقولوها" بنت عيشة"، لأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

# التنمية الثقافية

**عبد الفتاح القلقيلي**

التنمية "موضة" العصر (بالمعنى الايجابي للموضة)، التنمية البشرية، التنمية الانسانية، التنمية حرية، التنمية تحرر، التنمية مقاومة، التنمية ثقافة.

قديما كانت الفلسفة أم العلوم، و حديثا صارت التنمية هي ام العلوم، وترتبط بكل علم ونشاط "بشري" حسب مصطلحات " تقرير التنمية البشرية العالمي" او "انساني" حسب اصطلاح "تقرير التنمية الانسانية العربية".

كان "صن أمارتيا" الكاتب الهندي (١٩٩٩) اول من نحت مصطلح "التنمية حرية". وجاء تقرير التنمية الانسانية العربية لعام ٢٠٠٤ ليجعل عنوانه "نحو الحرية في الوطن العربي"، على اعتبار ان التنمية الانسانية هي "عملية توسيع خيارات البشر". ويأتي احمد ابو غوش في عام ٢٠٠٥ ليصدر كتابه بعنوان "التنمية في دول المحيط تحرر لا حرية"، إذ لا مجال للتنمية دون القضاء على التبعية،حيث ان التنمية الحيوية هي باختصار "تنمية قدرة العامل الذاتي". ومساهمة في هذا الحوار اطرحُ السؤال التالي:

ما الفرق بين ينمو ويزداد ويكبر؟

ينمو" تعني يتعاظم ويتطور بتغيّر داخلي، اما "يزداد" فتعني ان يُضاف له شيئٌ من خارجه وغالبا ما يكون المضاف كالمضاف اليه او كجزء منه، ولكن "يكبر" تعني ان يُضاف له شيئٌ من خارجه او يتطور من داخله. اي ان النمو عملية تطور داخلي

عضوي، والزيادة عملية خارجية، والكبر قد تعني إحداهما– والحالات الثلاث تحتاج ظروفا خارجية مواتية. ويجوز القول ان كل تغيّر لا يكون بتفاعل المكوّنات الداخلية ليس نموا، وعمليته ليست تنمية.

إن كان مفهوم التنمية قد تنوعت به الاراء، ولاقى تطورا وما زال، فان الفلاسفة والعلماء والباحثون ما زالوا مختلفين حول مفهوم الثقافة منذ ظهور هذا المفهوم. وأنا اتفق مع ابراهيم السعافين فآخذ بالمفهوم الاكثر اعتمادا الآن، وهو "ثقافة اي مجتمع هي نمط الحياة الكلية له،والعلاقات التي تربط افراده وفئاته، وتنعكس في توجهات هؤلاء الافراد وتلك الفئات في حياتهم".

اذا كانت الثقافة كما اسلفنا، فانني استطيع القول ان "الثقافة تنمية انسانية".

تصوير رؤوف حاج يحيى

والتنمية هي تطوير الثقافة وتحريكها وتفعيلها. ولا تكون الثقافة الا داخلية، ولا يكون جزءا منها الا ما تتمثله– فالطعام لايكون من جسم الانسان الا بمقدار ما يتمثله الجسمُ منه. والتلاقح الثقافي كالتحليل الضوئي في المنشور، حيث يدخله الشعاعُ بشكل واتجاه معينين، ويخرج منه بشكل واتجاه مختلفين.

صحيح انه لا تنمية الا بتقوية العامل الذاتي وتفعيله، ولكن لا مجال لذلك في حالة الانعزال، اي ان التفاعل شرط من شروط التنمية. وبما ان الثقافة تنمية فلا ثقافة انعزالية، اذ الانعزال الثقافي هو المجال الحيوي ل "صدام الحضارات"، ومن الهام هنا ان نحذّر من الخلط بين التفاعل الحضاري او الانفتاح الثقافي من جهة والتبعية الثقافية من جهة اخرى.الثقافة رؤية وسلوك مستند الى تلك الرؤية: رؤية للذات ورؤية للآخر. وكان كتاب "الاستشراق" لادوارد سعيد عام ١٩٧٨ " ثورة ثقافية" في هذا المجال في دول العالم الثالث (ما عدا البلاد العربية) وخاصة في الهند. وفضَحَ ادوارد سعيد كيف ان الادب ( الرواية والمسرح والسينما والشعر) وفقه اللغة وعلم الجمال وعلم التاريخ وعلم الاحياء والنظرية السياسية والاقتصادية وكافة النشاطات الذهنية الاخرى جرى توظيفها لاضفاء الشرعية والمنطقية والطبيعية على السياسة الغربية الاستعمارية الامبريالية تجاه غير الغربيين، اي السكان الاصليين في امريكا واستراليا واسيا وافريقيا. وكان كتابُ "الحرب الباردة الثقافية" للباحثة فرانسيس ستونر سوندرز عام ٢٠٠٠ القصة الكاملة للمخابرات المركزية الامريكية وعالم الفنون والآداب. هذا الكتاب يتيح لك ان ترى ان المخابرات المركزية الامريكية انشأت ومولت ورعت "منظمة الحرية الثقافية" لتكون جسر الثقافة الامريكية للهيمنة على العالم، ولتعمل كوزارة للثقافة الامريكية، اذ لا تكتفي امريكا بالسيطرة. وهنالك فرق بين الهيمنة والسيطرة رغم ان كلاهما سيادة: الاولى سيادة مقبولة من المسود وقد تجد الاستحسان، اما الثانية فمرفوضة وقد تجد المقاومة. الاستعمار هو شكل من اشكال السيطرة باعتباره إستيلاء على الارض والموارد، اما الامبريالية فهي محاولة للاستيلاء على عقول الناس واذواقهم في الاستهلاك المادي والمعنوي(فكرا وفنا وقيما). فان اكتشف لينين ان الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، فاننا وجدنا الان ان الامبريالية اعلى مراحل السيطرة.

ولذلك ارى ان كتاب الاستشراق والحرب الباردة الثقافية كتابان لا غنى عنهما ليس للعاملين في التنمية الثقافية فقط بل ولكل المهتمين بمسألة التنمية عموما والتنمية الثقافية خصوصا.

ان كانت التنمية عموما هي عملية تحرر فإن التنمية الثقافية هي عملية مقاومة وتعايش معا، فلا تنمية ثقافية دون مقاومة الهيمنة، ولا تنمية ثقافية دون تفاعل مع الآخر عطاء وأخذا.

لذلك، ليس امام الثقافة الفلسطينية التي اخذت بالتبلور منذ مطلع القرن العشرين، واكتسبت خصوصيتها من موقع الحارس والمقاوم، والتي لم تكن الا نسغا حيويا من جذر الثقافة العربية المرتبطة بها جدليا، وصولا الى كل ما هو انساني، ليس امام هذه الثقافة الا الانتقال من العفوية الى التخطيط ورسم السياسات الثقافية بخطوطها العامة. وفي هذا المجال تتعاون المؤسسات الفلسطينية الرسمية والأهلية المعنية بالثقافة، وفي طليعتها وزارتي الثقافة والتربية والتعليم، والمجلس الاعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، واللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم.